http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد(1362) السنة السادسة - الخميس (6) تشرين الثاني 2008

فن السجال بين الأجيال..

الأغنية العراقية بين نزعة الإندثار والإصرار على البقاء..

الاغنية المتقنة، ربما هي صوت وعينا، ومحاولة تحديد مسار الاغنية تتمثل اصلاً ، في امتلاكها لمراحل التطور النسبي في الفكرة والنص والاسلوب والتقنية والاداء فهي اي الاغنية المتقنة تتعارض مع نزعة الكون داخل النفق الاستهلاكي، فأن ارتباط الاغنية بنزعة الاستهلاك المتأججة، يعني تدميرها، فالاغنية المتقنة، هي أغنية تهريب المعرفة، على صعيد الصوت واللحن والنص، فهي خطاب معرفي لاتفرض علينا الشيء الذي ينبغي التفكير فيه، وانما الى ان تقول لنا بكل تواضع الشيء الذي يمكن التفكير فيه! فهي النابش عن حضارتنا الموسيقية والنغمية والادائية، فالاغنية على هذا الحال تكون لاذعة، لانها تعتمد حياكة مفهوم الخطاب الفني، والاغنية عبر أزمانها المتلاحقة إعتمدت على نوعين من الاسماع، الاول، متعاطف ومتواطىء، الثاني متحفظ ومتخفز للاثارة، الاول ، سكوتي، الثاني متحرك، ولكي تكون الاغنية،ذات منابر متعددة من الاغراض، فلابد ان تمتلك تلك الرقة الساحرة، ومحاولة الاحجام على الاطاحة بقدسية الشكل كعنصر مهم من عناصر البناء النصي في الاغنية،

عادل الهاشمي
تصوير/ صباح العاني

وعلى هذا الاساس، كانت الحدوس والتمثلات في الانتقال المرحلي بين الاغنية البغدادية، التي أحتلت حيزاً زمنياً مابين نهاية عقد الاربعينيات للقرن العشرين الغابر وكامل عقد الخمسينيات للقرن ذاته، و[نبلاج عقد الستينيات، كانت الاغنية البغدادية تفارق وجودها تماماً، من كونها خميرة خصبة الى تأريخ يحكي! في النص الغنائي-اللفاظي- كانت الاغنية البغدادية بكل امكاناتها البلاغية السقيمة من سجع وتورية وجناس ويتتبعها في ابعد استعمالاتها شذوذاً وأوسع الفاظها حذلقة وغرابة، بناءً متهالكاً للنص مثل (ولفي الغدار، يطلبني بثار، مخليلي باب الدار، شوية نار رايد بيها يحرك كلبي، اوف اوف ياربي)!! هذه الاغنية من الحان وغناء الرائد احمد الخليل، كما ان الاغنية البغدادية طرحت نموذجاً فيه قيمة نصية في بناء الخطاب الغنائي كما في هذه الاغنية (أحاول أنسى حبك والكلب مايريد/ أحاول ابتعد عنك غرامي يزيد/شلون انساك روحي وياك/ كل ماجربت مايفيد/ كل يوم المحبة تزيد) هذه الاغنية من الحان وغناء الفنان الرائد محمد عبد المحسن، المهم ان الاغنية البغدادية استحضرت عذاب الانتظار والتمزق بين الانسان وذاته، ليؤدي ذلك الى بروز القطيعة بين الذات العاشقة والعالم! (لو إلي وحدي لو روح الهلك روحي ما اكدر اضحيها الك روح ما اريدك بعد روح اهلك).

هذه الاغنية لحنها وغناها الرائد رضا علي، تتوضح عملية اللعب على الدلالات والمعاني، ويجب ان لايغيب عن بالنا. ان تواصل اقطاب الاغنية البغدادية، لم يكن ليعبر عن تواصل الاغنية كقالب فني، بل هو تواصل لعطاء قرائهم، لان استمرارهم في التلحين يجيء احتماءً بقوة صوتهم العالي في اللحنية العراقية، لذلك فأن نهاية مرحلة الاغنية البغدادية، كانت قد بدأت وهم في ذروة العطاء، اذن، لماذا انتهت تلك المرحلة وروادها في ذروة عطائهم؟ يخولنا هذا السؤال تقصي قضية التعبير الاكمل عن مرحلة جيل، لقد وجدت الاغنية البغدادية في مرحلة نهاية عقد الخمسينيات ملامح التكوين والاندراج في تشكيل قالبها الفني، ونعني بالملامح، عناصر الوجود الفني لها، وهي النص، الاداء، اللحنية، هذه العناصر الفنية وجدت في بيئة واحدة وعبرت عن اطار واحد واتجهت الى رموز واحدة، لكن اغنية«البيئة(×)»تمثل مزيجاً من الاعراق!! الاغنية الريفية، أغنية القرية، التلاحين البدوية، التراث المحلي البيئي، الفلوكلور الشعبي، الى جانب شذرات من المقام العراقي، وكان هذا الاتجاه يأتي كوسيلة لعقلنة الواقع في الاغنية، ولذلك اجتمعت في هذه الاغنية،اغنية البيئة هذا المذاق النفاذ لرائحة الوجود التاريخي العتيق، وهي صفة شرعية لولادة الفن المحتضن من قبل الطبيعة والعصر والواقع! ومع ان لبوس اغنية البيئة عرقياً، لكنه يتأثر بالضوء والهواء والماء، فهي عناصر الجدة الطبيعية والتكوين التلقائي الفارض

نكهته على الافئدة، هناك سؤال يفرض وجوده، وهو جانب من اجراء، ترى ما عوامل تقهقر

الاغنية البغدادية وعوامل ظهور اغنية البيئة؟ لكي نجيب اجابة تتسم بالحلول الواقعية والدقيقة، لابد من الالتجاء الى التاريخ، فعندما قامت ثورة الرابع عشر من تموز في عام ١٩٥٨، كانت ادوات التعبير عنها ستكون ناقصة، لو ان الفن المعبر عنها بقي أسير النزعة المدينية! اذ لابد ان تشترك كل القوى الشعبية (جنوب العراق وشماله ووسطه وشرقه وغربه) لان هذه القوى هي صاحبة المصلحة الحقيقية في الثورة، الى جانب ذلك ان الثورة اتاحت في أول عهدها نوعاً من حرية التنقل في المكان فهاجرت قوى فلاحية وعمالية من قراها وقصباتها وثغورها الى العاصمة بغداد، الامر الذي جعل الوجود البغدادي يفتح ذراعيه لاستقبال هذه الجموع البشرية، ومع هذه الجموع البشرية جاء العديد من الشعراء والفنانين وأصحاب الاصوات الشجية واصحاب الطاقات المبدعة في الفكر والعلوم والاجتماع، فلم تعد عند ذاك الاغنية البغدادية قادرة على ان تنوب عن هذه الجموع في التعبير عن دواخلها الحقيقية، وبالتالي، فأن الخطاب الغنائي لايكون قاصراً ان هو اعتمد على لغته الخاصة، فكان لزاماً ان يبرز فن يصبح ذا قيمة تحريكية وتجيشية، وهكذا شرعت اغنية في البحث عن الشمول الملحمي في اداة التعبير عن الجموع العراقية، وعندئذ اصبح كل شيء في الاغنية موضوعاً للفضول المعرفي والاكتشافي للاسماع العراقية، وهكذا كان ميلاد الاغنية البيئية الجنوبية، وساعتها تذوق العراقيون الغيرية الجذرية او لنقل الاختلاف الجذري لمعرفته الغنائية، واغنية البيئة قد أتخذت ولاشك من الحقل الطبيعي والتاريخي افقاً لها.

خصائص اغنية البيئة

ولنتحدث بشيء من التفصيل عن المعايير والخصائص التي قدمتها أغنية البيئة:

أولاً- انها كانت ولاشك بؤرة للتعبير عن جيل بأكمله والتقاء مشترك به.مثال أغنية (نخل السماوة يكول) فولوكلور جنوبي غناء / حسين نعمة.

ثانياً- قوالب ميلودية محكمة البناء ونماذج محددة لدور الموسيقى المصاحبة للغناء.مثال(ياطيور الطايرة) لحن /كوكب حمزة/غناء/ سعدون جابر / كلمات زهير الدجيلي.

ثالثاً- تباين حيوي داخل جذور الصلة المتبادلة بين الاصوات مثال (نحب لوما نحب) لحن/جعفر الخفاف/ غناء سعدون جابر وسيتا.

رابعاً- أنماط معينة، تتحكم في التعبير الخاص بأي عمل غنائي، مثال (المكير) لحن (كمال السيد/اداء / ياس خضر/ كلمات/زامل سعيد فتاح.

سادساً- أشكال غنائية جديدة، أو نماذج للبناء الغنائي/مثال(شكول عليك) لحن (محسن فرحان /غناء قحطان العطار / كلمات زامل سعيد فتاح.

سابعاً- دخول الات تراثية عراقية الى كيان الفرقة الموسيقية /مثال الة (الزرنة) في اغنية اعزاز /لحن / طالب القرة غولي/ غناء /ياس خضر /كلمات زامل سعيد فتاح.

ثامناً- نزوع نحو الحداثة في اللوازم الموسيقية والمقدمات الموسيقية /مثال /(مرة ومرة) (بالله سلام سلام) لحن الاغنيتين /جعفر الخفاف /غناء /رياض احمد.

تاسعاً- وكما تأثرت الاغنية البغدادية بالاغنية المصرية وهو شأن ملازم لكل الانماط الغنائية العربية، فان اغنية البيئة تأثرت ايضاً بالاغنية العربية مثال (مكتوب اشوفك من بعد) لحن/ محمد جواد اموري /غناء /حسين نعمة ولم يكن عبر تلك التحديدات التي احدثتها اغنية البيئة الجنوبية الا متابعة معركتها ضد النزعة التكنوقراطية- ان صح التعبير- في الخطاب الغنائي وتحطيم المحرمات الراسخة في الاغنية البغدادية والمطالبة الملحة بحق الاختلاف والتفرد، فبينما تتحلق اغنية بغدادية في الاسماع وهي لاترمي الى اي معنى حقيقي في البناء اللغوي..

اسمي واسمك في المحبة
خلو الحساد يكولون!!
منه مني خلا كلبه
يتحمل نار وأسية

هذه الاغنية من تأليف الشاعر الغنائي هلال عاصم والحان الملحن الرائد علاء كامل وغناء صلاح وجدي، بينما في اغنية البيئة تقول اغنية (المكير) كلمات زامل سعيد فتاح ولحن كمال السيد وغناء ياس خضر.

مشيت وياه المكير أودعنه
مشيت وكل كتر مني
إنهدم بالحسرة والونه
على الرملة الرملة الرملة
وضوه الكمره الكمره الكمره
يناشدني وأنشدنه

هذه أغنية تنطوي على قيم جماعية انسانية تقربها من التقاليد العريقة فهي تقدم جرداً أثرياً للأحاسيس والرؤى في حيز التجربة التاريخية للأنسان.

وتمضي بنا الاغنية البيئية الجنوبية فتدفع بما يعرف تنوع الايقاع والايقاع المتنوع، هو تعبير عن تعقيد وثراء الحياة الباطنية للفنان، وهو تعبير عن تيار الخبرة الباطنية انها بكل بساطة الحياة كما يشعر بها الاحياء، لكن الامانة تقتضي ان نقول ايضاً ان الاغنية البغدادية استثمرت ايقاعات تقليدية لم تستثمرها الاغنية البيئية الجنوبية، منها على سبيل المثال لا الحصر (الورشان، الفاخت، المحجر، المصمودي، الاقصاق، الربند، الضرفات) وسواها، غير ان اغنية البيئة تتفوق على الاغنية البغدادية في مجال التعبير، والتعبير -هنا- ليس بمعناه الشكلي، وانما تعبير بمعناه المنطقي! فليست الاغنية الجنوبية تقدم لنا تعبيراً عن النفس، أنما تقدم لنا تعبيراً عن الفكرة خذ مثلاً اغنية (اعزاز) كلمات الشاعر زامل سعيد فتاح والحان طالب القرة غولي وغناء ياس خضر، تقول المقدمة:

عزاز عدنه عزاز
شوكهم شوك الشواطي لليل دجلة
مدللين والفراك بعينهم
شوك الحمام الجاي لهله
والعتب بشفافهم ود وحنين
مدللين أحباب كلبي مدللين

عزاز عدنه مدللين أحباب كلبي

الاغنية من مقام الراست، يقتفي الملحن الكبير طالب القرة غولي نظام الابوذية في فن التلحين، وفي مجال الكلمة تبرز النزعة الابداعية في لغة زامل سعيد فتاح في قدرته على توليد الصور وتركيبها.

في المقابل هناك نص اغنية (أدير العين) من كلمات الشاعر سيف الدين ولائي ولحن الفنان الكبير رضا علي وغناء رادية، الاغنية من مقام النهاوند، يقول مطلع الاغنية.

أدير العين ماعندي حبايب
غريب الدار بس وين الكرايب
يشوفوني ويحنون
على حالي ويونون
اويلي شكثر أتحمل مصايب
أويلي ويلي
ويلي أنهدم حيلي

في صنيعه اللحني يتجلى رضا علي كأحد اقطاب الفن التلحيني العراقي الذي يلحن معنى النص لامبناه! ويقف الشاعر سيف الدين ولائي بما عرف عنه من مقدرة وامكانية، لكنه في هذا النص على جماله، فيه تلك الدقة في التعبير الى جانب تكدس الرؤى والصور في أحداث غموض بالنص بدوره الى تخريجات تبدو خيالية او تقارب من الخيالية.

وفي نص (تناشدني عليك الناس) من كلمات الشاعر كاظم الرويعي ومن الحان الملحن القدير عبد الحسين السماوي وغناء سعدي الحلي، الاغنية من مقام (أوشار) يقول المطلع.

تناشدني عليك الناس
واتحير شجاوبهه
وهالفتنة اللي ما تنقاس
كلي منين جايبهه
اللفتات الغزالية
والعيون الفراتية
وشفافك الوردية
وهالفتنة اللي ما تنقاس
كلي منين جايبهه

اللحن في هذه الاغنية عراقي، لانه مصاغ وفق مقام عراقي او لنقل شرقي، فيه صنعة وفيه جمال وفيه بناء، الكلمات، يسعى الشاعر الرويعي الى نوع من التطابق بين مملكة النبات والحيوان فأوصاف غزالية ووردية وسواهن تنوعاً في الاحاسيس والتجربة وتنظمها صياغة وجدانية، هي من ابداعات الشاعر.

وفي أغنية (سألت عنك) كلمات الشاعر عبد الكريم مكي والحان الفنان الكبير فاروق هلال وغناء المطربة المتفردة مائدة نزهت، وهي من مقام (الكرد) يقول مطلع الاغنية:

سألت عنك والليالي اليمرن ليلة لليلة
سألت عنك كل حمام الدوح وكل ورد الخميلة
سألت عنك وانت للملهوف سفانه ودليله

هذا النص مديني يسجل حضوراً ليس فيه حظوة بين القصيد والعرف اللغوي! كما ان اللحن الذي صاغه فاروق هلال يدمج الغناء في تياريه الرئيسين، الشرقي والغربي، في توليفة رائعة ينهض بها صوت المطربة الكبيرة مائدة نزهت خير نهوض.

وفي أغنية (عزيز العين) كلمات الشاعر هلال عاصم وألحان الفنان الرائد يحيى حمدي ومن ثم امل خضير وهي من مقام (اللامي) يقول مطلع الاغنية وهي بغدادية من ايقاع الجورجينا العراقي ١٦/١٠.

لو كتلك جيبي العين فدوة
وية اهل الحسد ابتلي بلوة
والله الدنية من غيرك ماتسوة
فدوة ياعزيز العين فدوة

هذه الاغنية تعبير عن ملامح فقيرة خالية من التحولات، فهي لغة المدائح، مدائح المحبوب! أما اللحن لايعلو عليه، فهو جميل وحنين وقوي وعليه فلم يكن في مقدور يحيى حمدي على الاطلاق ان يعرف اي نواح من فنه سوف يكون لها اهمية للمستقبل!

وهذه اغنية من البيئة الجنوبية (ياحريمة) كتب كلماتها الشاعر ناظم السماوي، لحنها الفنان محمد جواد اموري، وأداها المطرب حسين نعمة، من مقام (العجم) يقول مطلعها.

ياحريمة انباكت الجلمات من فوك الشفايف
ياحريمة سنينك العشرين مامرهة العشك
والعشك خايف
لا ولك..
لا لا على بختك ماني سالوفة صرت بين الطوايف
ياحريمة
نعي فيه شفافية وعمق لايخالطهما تصنع او اغراق في التأثير الدرامي، انها ترجمة للنفس الشاعرة في تأملها البعيد عن ترهات الحياة اليومية، واللحن فيه عمق وتصوير للكلمات والاستفادة العاطفية والتعبيرية للكلمات ويمكن القول ان مقام العجم اختير لتقديم تعبير عاطفي اخاذ.

في المقابل كانت هناك اغنية ترفل بالثوب البغدادي (كالو حلو) كلمات الشاعر ابراهيم احمد، ألحان الفنان الرائد احمد الخليل ، غناء المطربة مائدة نزهت وهي من مقام (الهزام) يقول مطلعها:

كالو حلو كل الناس تهواه
محبوبي ودليلي ودوم وياه
محبوبي ودليلي ودوم وياه
سهرني الليالي
ومعذب أحوالي
ناسيني ياويلي أشلون أنساه

هذه كلمات تشهد على خواء القريحة الشعرية للشاعر الغنائي، وهي تصف الحب بتزييف وأختلاق، بينما لغة الشاعر الحقيقي تنبع من تجربة الانسان التاريخية اما اللحن فهو واحد من ابرع الالحان التي سطرتها الاغنية البغدادية عبر تأريخها، واللحن يحكمه قوام منطقي وايقاع متوثب وهو ايقاع الوحدة.

كثيرة هي الشواهد التي يمكن ادراجها في موضوعة اغنية البيئة، المهم ان اغنية البيئة طرحت اسماء في مجال الالحان والكلمات (النص) والاصوات على صعيد اللحن برز ملحنون (طالب القرة غولي،كوكب حمزة، محمد جواد أموري، عبد الحسين السماوي، جعفر الخفاف، محسن فرحان، الى جانب ملحنين اخرين منهم محمد نوشي الذي جمع بين النمطين النمط البغدادي والنط البيئي الجنوبي. وهذا الامر ينطبق ايضاً على الملحن ياسين الراوي كذلك يندرج في هذا التيار الفنان فاروق هلال، وهناك ملحنون من طبقة غير الطبقة التي يمثلها الذي تقدم نذكر منهم علي عبد الله، مجيد العلي، ذياب خليل، طالب غالي، عباس حسن، وسواهم.

في مجال الكلمة الغنائية ظهرت طبقة من الشعراء، لعل في المقدمة منهم كاظم الغزي، ابو سرحان،طارق ياسين، داود الغنام، نزار جواد، كاظم عبد الجبار، وسواهم وفي مجال الصوت الغنائي ظهرت أصوات من عيار حسين نعمة، ياس خضر، فاضل عواد، فؤاد سالم، سعدون جابر،رياض احمد، صلاح عبد الغفور، صباح السهل، حميد منصور، رضا الخياط، قاسم اسماعيل، هادي سعدون، جواد محسن،كريم محسن، داود العاني، داود القيسي، حسين السعدي، جاسم الخياط، قحطان العطار.

انجازات الاغنية العراقية

نخلص الى القول، الى ان اغنية البيئة التي فرضت وجودها على الاسماع العراقية عبر عقود السنين التي مرت على الغناء العراقي قد حققت عدة مناحي، هي :

١. استواؤها على نظرة المقامات والانغام فيه دقة وفهم وفيه تأثير ايضاً.

٢. وجود رموز هنا وهناك خاصة بالتعبير في عالم الاغنية.

٣. ان اغنية (البيئة) الجنوبية تضمنت صيغة فنية بين الايقاع واللحن والتئام عواطفي، فهي قد خرجت بحيويتها وفطنتها وسحرها وتألقها، ولعل سر نجاح أغنية (البيئة) يعود الى ان اهتمام هذه الاغنية كان يقوم على المصادفات اكثر من اهتمامها بالقوانين بعد ان تفسخت الخطوط وانشقت وتبعثرت كل البناءات العائدة للاغنية البغدادية، وهذا التفسخ والانشقاق والتبعثر، واجهته الاغنية البغدادية لحدوث القطيعة التاريخية مع الاستمرارية الفنية، بينما في اغنية البيئة لم يحدث هذا الانقطاع، فقد استمرت هذه الاغنية تغذي الجهاز السمعي العراقي، لكن الاغنية البيئوية الجنوبية طوقتها اعداد لاتحصى من الاحداث الضائعة، وحوربت بشراسة وقسوة وفق عقلية العقاب ولعبة الانحرافات في الفن، كانت هناك قوى أسهمت في دفع اغنية البيئة الى الاندثار بالاكفان، في الوقت نفسه تسارع هذه القوى الى الطلب من هذه الاغنية بان تهتف للحياة!! ان اغنية البيئة لم تناقض مفهومات الفن كأعتراف ومفهومات الفن كأستمرار ومفهومات الفن كمعرفة، ان الاصول التي تلفعت بها اغنية البيئة هي اشهار المقاومة ضد محاولات اقتلاعها من جذورها عن الجسد الغنائي العراقي ورفضها ارتداء اية هوية وهمية! وكانت اغنية البيئة ضحية لامراض السياسة حيث حاولت هذه الامراض إزاحتها عن مكانها الشاهق في تيار الحياة الدافق وإلقاء صنيعها اللافت على مهم ش الاشياء!

ومهما يكن من امر، فأن عدكم تطورية هذا الضرب الممتاز وتدريجيته وتواصليته يعكس فداحة الخسارة التي مني بها الحق الجمالي في الاغنية، وصرنا نتحسس الفجوات والانقطاعات داخل هذه الاغنية حتى كفنوها ومنعوا عنها حق الحياة والاستمرارية.

(×)مصطلح اطلقناه على الاغنية الجنوبية في كتابنا (مسيرة اللحنية العراقية) الصادر عام١٩٨٩